

الباب السابع

الحركة الرجعية الأجرية

٧٧ - ٦٠ ق . م

الفصل الأول

الحكومة

على أن صلا قد أخطأ مرتين بإسرافه في الكرم ، وكان خطوه الأول
انه أبقى حياة رجل كان ابن عدو له وابن أخى عدو آخر ، ذلك هو كيوس
يوليوس قيصر المرح النابه الذى كان يوشك أن يبدأ العقد الثالث من عمره
في سنه الإرهاب . وكان صلا قد طلب إعدامه فيمن طلب إهدامهم ،
ولكنه عفا عنه استجابة لشفاعة أصدقائه وأصدقاء الشاب . على أنه لم يكن
مخطئاً في حكمه حين قال : « إن هذا الشاب هو ماريوس مكرراً » . ولعاه
أخطأ كذلك إذ جعل باعتزال الحياة السياسية وأسرف في الملاذ فقرب
إسرافه أجله : ولو أنه أوتى من الصبر وبعد النظر بقدر ما أوتى من القسوة
والشجاعة لأنجى رومة من الفوضى التى ضربت أطنابها فيها خمسين عاماً ،
ولأمكنها أن تستمتع في عام ٨٠ ق . م بالأمن والسلام والنظام والرخاء التى
أعادها إليها أغسطس قيصر حين عاد إليها من أكتيوم ، ولاكان ما عمله
أغسطس خلقاً وإبداعاً لا إرجاعاً للقديم .

ولم تكد تمضى على وفاته عشر سنين حتى ذهبت كل أعماله . ذلك أن
الأشراف قد غرهم ما أوتوا من نصر في صراعهم المرير ، فأهملوا واجبات الحكم
وسعوا لكسب المال من طريق التجارة لينفقوه في ترفهم وشهواتهم . واستمر

النزاع بين الأشراف والعامّة قوياً مريراً لا ينقصه إلا فرصة تتاح حتى يلجأ الطرفان فيه إلى أشد ضروب العنف . وكان الأشراف : « خيار الناس » *optimates* يستمسكون بنبلهم ، ولكن لم يكن معنى استمسكهم به أن يرفعوا بسبب هذا النبل عن ارتكاب الدنيايا ، بل كان معناه في نظرهم أن الحكم الصالح يطلب قصر المناصب العليا في الدولة على الذين تولوها أسلافهم من قبل ، فإذا تقدم لمنصب منها رجل لم يكن أباًؤه ممن تولوها قبله سخرُوا منه وسموه « رجلاً حديثاً » *Novus homo* أي « حديث النعمة » ، وكان من هؤلاء الحديثي النعمة ماريوس وشيشرون . أما العامة فكانوا يطلبون أن تتاح الفرصة للذوي المواهب والكفايات ، وأن تكون السلطة كلها في يد الجمعيات ، وأن توزع الأراضي الحرة على الفقراء والجنود المسرحين . ولم يكن الأشراف ولا العامة ممن يؤمنون بالديمقراطية بل كانت كلتا الطبقتان تسمى لأن تكون هي الحاكمة بأمرها ، وتلجأ إلى ضروب الإرهاب والفساد والرشوة على ملأ الناس بلا خوف ولا وخز ضمير . واستحالت الجماعات التي كانت من قبل جمعيات خيرية لتبادل البر بين أعضائها وكالات لبيع أصوات العامة في الانتخابات ككتلاً . وارتقت عملية ابتياع الأصوات حتى تطلبت درجة كبرى من التخصص ، وطائفة من الإخصائيين ، فكان منهم المشترون *divisores* الذين يبتاعون الأصوات ، والوسطاء *interpretes* والحراس *sequestres* الذين يحتفظون بالمال حتى تعطى الأصوات (٢) . وفي أقوال شيشرون وصف للمرشحين وهم يسرون بين الناخبين في حقل المريخ وأكباس نقودهم في أيديهم (٣) . واستطاع بمي أن يحمل الناس على اختيار صديقه أفرانيوس *Afranius* قنصلاً بدعوة زعماء القهائل إلى حدائقه ، وفيها أعطى كل زعيم أثمان أصوات قبيلته (٤) . وبلغ ما كان يستدان من المال لشراء أصوات الناخبين حداً رفع سعر قائمة الأموال التي تفترض في أثناء الحملة الانتخابية إلى ثمانية في الشهر الواحد (٥) .

وكالت المحاكم نفسها - بعد أن اختص بها أعضاء مجلس الشيوخ - لا تقل فساداً عن عمليات الانتخاب ، وفقدت الأيمان كل ما كان لها من قيمة في الشهادة ، وفشت شهادة الزور كما فشت الرشوة . ولما أن اتُّهم ماركس مسالا *Marcus Messala* بأنه ابتاع بالمال الأصوات التي انتخب بها قنصلاً في عام ٥٣ برىء بالإجماع ، وإن كان أصدقاؤه أنفسهم شهدوا عليه واعترفوا بجريمته^(٦) . وكتب شيشرون لابنه يصف هذه الحال بقوله : « لقد أصبح المال أساس كل المحاكمات ، ولذلك لن يحكم على إنسان إلا في جرائم القتل »^(٧) ، وكان خليقاً به أن يقول « إنسان ذى مال » ، « فبغير المال وبغير المحامي القدير » كما قال محام آخر في ذلك الوقت « قد يتهم إنسان ساذج برىء بأية جريمة لم يرتكبها قط ، ثم يحكم عليه ما في ذلك شك »^(٨) . ولما برىء لنتولس صوراً *Lentulus Sura* بأغلبية صوتين حزن أشد الحزن على ما أنفق من مال في رشوة قاض أكثر من العدد الذي كان يجب عليه أن يرشوه^(٩) . ولما أدان المخلفون من أعضاء مجلس الشيوخ البريتور كونتس كليدس *Quintus Calidus* قال « إنهم لم يكن في وسعهم مع احتفاظهم بشرفهم أن يطلبوا أقل من ثلثمائة ألف سسترس إذا أريد منهم أن يحكموا على پريتور »^(١٠) .

وكان ولاية الأقاليم من أعضاء الشيوخ السابقين ، وجباة الضرائب ، والمرابون ، ووكلاء التجار ، يبتزون الأموال من الأقاليم تحت حماية هذه المحاكم ابتزازاً لو سمع به أسلافهم لغضبوا له غيرةً من هؤلاء وحسدأ لهم . ولسنا ننكر أنه كان من بينحكام الأقاليم طائفة من الكفاة الأشراف ، أما أكثرتهم العظمى فاذا عسى أن ينتظر منها ؟ لقد كانوا يعملون بلاأجور ، وكانت العادة المألوفة أن يظلموا في مناصبهم عاماً واحداً ، وكان عليهم في خلال هذه الفترة القصيرة أن يجمعوا من المال ما يكفي للوفاء بديونهم ، وابتياح منصب جديد ، وأن يضمّنوا لأنفسهم فيما بعد عيشاً رغداً يلبق بالرومانى العظيم . ولم يكن البلاد

من يحول بينهم وبين أطاعهم إلا مجلس الشيوخ ، وكان في وسع الحكام أن يثقوا بأن الشيوخ وهم سادة مهذبون يمنعهم كرم معتد بهم أن يكونوا سبباً في لفظ غير محبوب لأنهم كلهم قد فعلوا مثل ما فعله هؤلاء الحكام ، أو يرجون أن يفعلوا مثله بعد قليل ، ولنضرب لذلك مثلاً يوليوس قيصر نفسه ، فقد ذهب ليحكم أسبانيا في عام ٦١ ق . م وعليه من الديون ما يعادل ٧٥٠٠٠٠٠ ريال أمريكي . فلما عاد في عام ٦٠ ق : م وفي بهذا الدين كله دفعة واحدة . وكان شيشرون يظن أنه رجل شريف متزمت شرفه إلى حد يؤلمه أشد الألم ، لأنه لم يجمع في السنة التي ولى فيها حكم قليقية أكثر من ١١٠٠٠٠ ريال أمريكي ، وكان يملأ رسائله بالدهشة من اعتداله .

وكان القواد الذين يفتحون الولايات أول من يستفيد منها . فقد كان لوكلس بعد حروبه في الشرق مضرب المثل في الترف ، وجاء بمجي من تلك البلاد نفسها بما قيمته أحد عشر مليون ريال أمريكي لنفسه ولأصدقائه ، وإذا قلنا إن قيصر جمع لنفسه من بلاد الغالة ملايين يخططها الحصر فإن قولنا هذا لا يعدو الحقيقة إلى الحجاز . ويلي هؤلاء الحكام في ابتزاز المال الملتزمون وكانوا يجمعون من الأهلين ضعفي ما يرسلونه إلى رومة ، فإذا عجزت مدينة أو ولاية عن أن تجمع من سكانها ما يكفي من المال لأداء ما يجب عليها أن تؤديه من الخراج أو الضرائب أقرضها المليون أو الساسة الرومان ما تحتاجه من المال بفائدة تتراوح بين اثني عشر وأربعين في المائة ، على أن يتجمع منها رأس المال وفائدته ، إذ لزم الأمر ، الجيش الروماني نفسه بحصارها أو فتحها أو نهبها . وقد حرم مجلس الشيوخ على أعضائه أن يشتركوا في هذه القروض ، ولكن عظماء الأشراف أمثال بومي ، والصالحين منهم أمثال بروتس ، لم يعدوا وسيلة للاحتيال على القانون باستخدام الوسطاء في إقراض المال . وحسبنا دليلاً على ما وصلت إليه هذه الحال أن أقاليم آسية

الرومانية قد أدت إلى الرومان فوائده على ما اقترضته منهم ضعفي ما أدته إلى
الملتزمين وإلى الخزائن الرومانية (١١) . وفي عام ٧٠ ق . م بلغ ما أدته وما لم
تؤده مدن آسية الصغرى من فوائده على الأموال التي اقترضتها للوفاء بمطالب
صلا في عام ٨٤ ستة أضعاف هذه القروض ؛ ولم تجد العشائر والجماعات
وسيلة لأداء أرباح هذا الدين للفادح إلا أن تبيع أبنيتها العامة وتمثيلها ،
وأن يبيع الآباء أطفالهم في أسواق الرقيق ، وذلك لأن المدين الذي يعجز
عن أداء دينه كان يعذب على العذراء ؛ فإذا ما بقي في الولاية شيء من
موارد الثروة بعد هذا كله هرعت إليها من إيطاليا وسوريا وبلاد اليونان
جماعات من المقاولين ، تعاقد معهم مجلس للشيوخ على « تنمية » ثروة الولاية
المعدنية والخشبية وغيرهما ؛ وكانت التجارة تسير على الدوام في ركاب العلم
الروماني ، فن التجار من كانوا يشترون الأرقاء ، ومنهم من كانوا
يشترون السلع أو يبيعونها ، ومنهم من كانوا يشترون الأرض وينشئون في
الأقاليم ضياعاً أوسع رقعة من ضياع إيطاليا . وفي ذلك يقول شيشرون
في عام ٦٩ ق . م مبالغاً في قوله كعادته : « لا يستطيع رجل من الغالين
أن يقوم بعمل تجارى إلا عن طريق مواطن روماني ؛ ولا ينتقل درهم
واحد من يد إلى يد دون أن يمر بسجل أحد الرومان » .
وقصارى القول أن التاريخ القديم لم يشهد في جميع أدواره حكومة
تضارع حكومة ذلك العهد في ثرائها وسطوتها وفسادها .

الفصل الثاني

أصحاب الملايين

ورضى رجال الأعمال بحكم مجلس الشيوخ لأنهم كانوا أكثر من الأشراف استعداداً لاستغلال موارد الولايات ، وبهذا تم « ائتلاف الطبقات » أو تعاون الطبقتين العاليتين وهو المثل الأعلى الذى كان ينادى به شيشرون والذى أصبح حقيقة واقعة فى شبابه ؛ فقد اتفقت الطبقتان على الاتحاد والغزو . وكان رجال الأعمال ووكلاؤهم المعتدون يملأون أروقة رومة وطرقاتها ، وتغص بهم أسواق الولايات وحواجزها . وكان رجال المصارف يصدرون خطابات الاعتماد إلى الهيئات المالية المرتبطة بهم (١٣) ، ويقرضون المال لكل غرض من الأغراض حتى لخوض غمار الحياة السياسية . وكان التجار يتدبذبون بين العامة والأشراف فيعينون بنفوذهم الأولين إذا زادت أنانية الشيوخ ، ثم يعودون إلى الشيوخ إذا حاول الزعماء الديمقراطيون أن يبروا بوعودهم التى قطعوها للطبقات الفقيرة قبل الانتخاب .

ويعد كراسس **Crassus** ، وأتكس **Atticus** ولوكلس **Lucullus** نماذج صادقة لمظاهر الثراء الرومانى الثلاثة : الحصول عليه ، والمضاربة به ، ثم استخدامه للتنعم والترف . كان ماركس ليسينيوس كراسس **Marcus Licinius Crassus** ينحدر من أسرة شريفة ؛ فقد كان أبوه خطيباً مصقلاً ذائع الصيت ، وقنصلاً ، ورقيباً ، حارب إلى جانب صلا ثم فضل الانتحار على التسليم لماريوس ؛ وفأكما صلا ابنه بأن سمح له بشراء أملاك المحكوم عليهم المصادرة بطريق المساومة ؛ وكان ماركس فى شبابه قد درس الأدب والفلسفة ، واشتغل بجد فى الأعمال القضائية ، ولكن رائحة المال أسكرته فى تلك الأيام الأخيرة ، فأنشأ فرقة لإطفاء الحريق - وكان ذلك عملاً جديداً لم تلهه رومة من قبل ؛

وكانت إذا شئت النار سارعت إلى مكانها ، وعرضت أن تستأجر لإطفائها ، أو ابتاعت المباني المعرضة لخطر الحريق بأثمان اسمية . ثم أطفأت الحريق . وحصل كراسس بهذه الطريقة على مئات من البيوت والمساكن كان يؤجرها بأجور مرتفعة . واشترى كذلك عدداً من مناجم الدولة حين أخرجها صلا عن نطاق الأملاك العامة . وما لبثت ثروته أن ارتفعت بهذه الطريقة من سبعة ملايين ستررس إلى مائة وسبعين مليوناً (أى نحو ٢٥٠٠٠٠٠٠ ريبال أمريكى) - أو ما يقرب من جميع دخل الخزانة العامة في عام كامل . ويقول كراسس إنه لا يحق لإنسان ما أن يعد نفسه غنياً إذا لم يكن في مقدوره أن يجند لنفسه جيشاً ، ويعد له كل ما يلزمه من سلاح وعتاد ويحتفظ به (١٤) . وقد شاءت الأقدار أن يكون هلاكه بسبب ثرائه الذى يحدده هذا التحديد . ذلك أنه بعد أن أصبح أغنى رجل في رومة ظل حليف الشقاء ، شديد الرغبة في أن يشغل منصباً هاماً ، وأن يكون والياً على أحد الأقاليم وقائداً لحملة أسبوية . ومن أجل ذلك كان يطوف الشوارع يستجدى الناس أصواتهم في ذلة وخضوع ، ويحتفظ بالأسماء الأولى لعدد لا يحصى من المواطنين ، ويتظاهر بشطف العيش ، ويعمل على ضم ذوى النفوذ من رجال السياسة إليه بإقراضهم المال من غير فائدة على شرط أن يؤدوه له متى طالبهم بأدائه . على أنه رغم حرصه وطمعه كان طيب القلب ، لا يصد عن بابه من يريد لقاءه ، يكره أصدقاءه إلى أقصى حدود الكرم ، يسدى للنصيحة لكلا الحزبين السياسيين بالحكمة التى امتاز بها أمثاله من الرجال على مدى الأيام ، وقد حقق في حياته كل آماله ، فاختر قنصلاً في عام ٧٠ ق : م ، واختير إلى هذا المنصب مرة أخرى في عام ٥٥ ، وحكم سوريا ، وأعان على تجهيش الجيش العظيم الذى قاده لفتح پارثيا parthia . وهُزم في كارهى Carrhae وأسر غدرًا وخيانة ، ثم قتل قتلة وحشية في عام ٥٣ ، فقطع رأسه ، وصب أعداؤه الذهب المصهور في فمه .

وكان تيتس ، پومپونيوس أتكس Titus Pomponius Atticus أصدق

أرستقراطية من كراسس ، ومن طراز من أصحاب الملايين أسبى من طرازه : فقد كان يضارع في الشرف والأمانة ماير أنشل سيليل آل رتشيلد Meyer Anschel of the rot Schild ولا يقل علماً عن لورنزو ده مديشي Lorenzo de Medici وكان حاذقاً في الشؤون المالية حذق فلتير Voltaire . ونحن نسمع به في بادئ الأمر وهو يطلب العلم في أثينة حين سحر بحديثه وبقراءته للشعر اليوناني واللاتيني لب صلا ، فألح عليه هذا القائد السفاح أن يعود معه إلى رومة ليكون فيها رفيقاً له ، فأبى تيتس أن يستجيب لإلحاحه . وكان عالماً ومؤرخاً ، كتب تاريخاً موجزاً للعالم (١٥) . وعاش معظم حياته في الأوساط الفلسفية في أثينة ، وسمى أتكس لعلمه الغزير ببلاد أتكا وحبه العظيم لأهلها . ورث الرجل عن أبيه وعمه أموالاً تبلغ قيمتها نحو ٩٦٠,٠٠٠ زيال أمريكي استثمرها في مزرعة عظيمة لتربية الماشية في إپيروس Epirus وفي شراء الدور في رومة وتأجيرها ، وفي تدريب المصارعين وأمناء السر وتأجيرهم ، وفي نشر الكتب : وكان إذا تهيأت أسباب المشروعات النافعة أقرض المال بفوائد مجزية ، ولكنه كان يقرض أثينة وأصدقائه قرضاً حسناً من غير فائدة (١٦) . وكان شيشرون وهورتنسيوس Hortensius وكاتو الأصغر يودعون عنده ما ادخروه من المال ، ويعهدون إليه تدبير شئونهم ، ويجلونه لبعده نظره واستقامته وعظم ما يؤديه إليهم من الأرباح .

وكان يسر شيشرون أن يستشيره فيما يبتاعه من البيوت ، وفيما يختاره لتزيينها من التماثيل وفيما يملأ به مكتباته من الكتب : وكان أتكس يولم الولائم في قصد واعتدال ، ويعيش في تواضع الأبيقوري الحق ، ولكن بشاشته لأصدقائه وحديثه المطرب المثقف جعلاً بيته ملتقى العظماء من رجال السياسة . وكان يعاون الأحزاب جميعها ، وقد نجا من اضطهادها جميعاً . ولما بلغ السابعة والسبعين من عمره . وأصيب بداء عضال آلمه ويثس من شفائه منه . أمات نفسه جوعاً .

وأبخر لوسيوس لوسيليوس لوكلس Lucius Lucinius Lucullus وهو

رجل من أسرة من كبريات الأسر الشريفة ، عام ٧٤ ليتم ما بدأه صلا من حرب مثر داتس : وظل ثمانى سنين يقود جنوده القلائل فى شجاعة ومهارة حتى أوشكت حملته أن تظفر بالنصر المؤزر على عدوه ؛ ثم تورد جنوده المتعبون ، فقادهم هو وهم مرتدون من أرمينية إلى أيونيه وسط مخاطر لا تقل عن المخاطر التى نخلدت اسم زينوفون Zenophon . ولما أفلحت اللدسائس فى إبعاده عن قيادة الجيش ، عاد إلى رومة حيث قضى بقية حياته فى هدوء وترف ونعيم . وشاد على تل بنسيوس Pincius قصرأ واسع الأبهاء ، وبوائك ، ودور كتب ، وحدائق . وكان له فى تسكولم Tusculum ضيعة تمتد عدة أميال ، وابتاع له فى ميسينيوم قصرأ صغيرأ ذا حديقة بعشرة ملايين مسترس (أى نحو مائون ونصف مليون ريال أمريكى) ، وحول جزيرة نسيدا Nesida بأكلها إلى مصيف له لا يشاركه فيه سواه . وذاعت شهرة حدائقه بما حوت من غروس لم يكن لها نظير من قبل فى رومة . من ذلك أنه هو الذى أدخل شجرة الكرز إلى إيطاليا من بلاد بنتس ، ومن إيطاليا نقلت هذه الشجرة إلى شمالى أوربا وإلى أمريكا . وكانت موائده من الحادثات الهامة التى يتناقل الناس أخبارها فى رومة طوال العام . ولقد حاول شيشرون فى يوم من الأيام أن يعرف كيف يتغاطى لوكلس طعامه إذا كان بمفرده ، فطالب إليه أن يدعوهُ هو وجماعة من أصدقائه ليتعشى معه ذات ليلة ، ولكنه استحلّف لوكلس ألا يخبر بذلك أحداً من خدمه . ووافق لوكلس على هذا ولم يشترط إلا أن يسمح له بأن يخبر رجاله بأنه سيتعشى فى « قاعة أبلون تلك الليلة » ؛

ولما أقبل شيشرون ومن معه وجدوا مائدة فخمة . ذلك أنه كان للوكلس عدة حجرات للطعام فى قصره بالمدينة يختار كل واحدة منها حسب فخامة الوليمة . وكانت قاعة أبلون مخصصة بالواجبات التى تكلف الواحدة

منها مائتي ألف سترس أو أكثر (١٧) . واكن لوكلس لم يكن بالرجل
النهم ، وكانت بيوته بمثابة معارض لروائع الفن المختارة أحسن اختيار ،
وكانت مكاتبه مورداً غنياً للعلماء والأصدقاء ، وكان هو نفسه ضليعاً في
الآداب القديمة وفي الفاسفة على اختلاف أنواعها ؛ وكان يفضل منها بطبيعة
الحال فلسفة أبيقور . وكان يسخر من حياة بومي الشاقة المجهدة ، ويرى أن
حسب المرء طول حياته حملة حربية واحدة ، وأن كل ما زاد على ذلك
غرور لا خير فيه .

وحذا حذوه كثيرون من أثرياء رومة وإن لم يكن لهم ذوقه ، وسرعان
ما أخذ الأشراف والأثرياء يتنافسون في مظاهر الترف والنعيم ، على حين
كان وميض نار الثورة يلوح في الولايات المفلسة ، والناس يموتون جوعاً في
أكواخهم القنطرة الحقيمة . وكان الشيوخ لا يستطيعون من زوهم إلا وقتهم
الظهيرة ، وقلما كانوا يحضرون جلسات المجلس . وكان بعض أبنائهم
يتزيون بأزياء العاهرات ، ويختالون في الطرقات كاختيالهن ، على أجسامهم
ثياب مطرزة مزركشة ، وفي أرجلهم صنادل كصنادل النساء ، متعاطرين
متحلين بالجواهر ، لا يقبلون على الزواج ، وإذا تزوجوا عملوا على
ألا يكون لهم أبناء ، وينافسون شبان اليونان في التخنث ؛ وكان الشيخ
الواحد في رومة ينفق على بيته ما لا يقل عن عشرة ملايين سترس . وقد
بنى كلوديوس زعيم العامة قصرأ كلفه ٨٠٠٠٠٠٠٠ . وكان المحامون
أمثال شيشرون وهورتنسيوس Hortensius يتنافسون في تشييد القصور
تنافسهم في الخطابة رغم قانون سنسيوس الذي يحرم الأجور القضائية ؛
وكانت حدائق هورتنسيوس تحوى أكبر مجموعة من الحيوانات في إيطاليا
كلها . وكان لكل رجل ذي مقام منزل ذو حديقة في بايا Baiae أو بالقرب
منها ، حيث كان الأشراف يتمتعون بحمامات البحر وجمال خليج نابلي ،

ويطلقون لشهواتهم الجنسية العنان ، وقامت قصور أخرى من نوعها على التلال المجاورة لرومة . وكان لكل ثرى عدد من هذه القصور ، فكان يتنقل من قصر إلى قصر في فصول السنة المختلفة . وكانت الأموال تنفق جزافاً في تزيينها من الداخل ، وفي تأنيثها وشراء ما يلزمها وما لا يلزمها من الصحاف الفضية وحسبنا أن نذكر أن شيشرون أنفق خمسمائة ألف سسترس على نضد من خشب الليمون . ولم يكن غريباً أن ينفق أمثاله مليون سسترس على نضد آخر من خشب السرو ، ولقد قيل إن كاتو الأصغر ، وهو الذي كان مضرب المثل في الفضائل الرواقية بأجمعها ، قد ابتاع من مدينة بابل أغطية خوان بثمانمائة ألف سسترس (١٨) .

وكان يقوم بالخدمة في هذه القصور جيوش من الأرقاء إحصائيون في أعمالهم المختلفة - منهم خدم حجرة السيد نفسه ، ومنهم حاملو رسائله ، وموقدو مصابيح ، وموسيقيوه ، وأمناء سره ، وأطباؤه ، وفلاسفته ، وطهاته . وأصبح الأكل وقتئذ أهم أعمال الطبقات العليا في رومة . وكان القانون الأخلاقي عندهم هو قانون مردورس القائل بأن : « الشيء الطيب هو ما له صابة بالبطن » . وحسبنا دلالة على فهم أهل ذلك العصر وتفنتهم في ملء بطونهم أن نذكر أن وليمة أقامها كاهن كبير في عام ٦٣ ق . م وحضرها خليط من الجلسين منهم قيصر وعلداری قستا ، كانت المشهيات فيها بلح البحر ، وطيور الدج بالخنجل (الاسفراغ) والطيور البسمينة ، وفطائر البطلينوس (**) ، وحشيشة القريض البحرية ، وشرائح البطارخ والسماك الصدفي الأحمر ، والطيور المغردة . ثم يجيء بعد هذا كله الطعام نفسه ويتكون من أثناء الخنازير ، وروؤوسها ، والسماك ، والبط المنزلي والبرى ، والأرانب ، والدجاج ، والفطائر والحلوى (١٩) . وكانت الأطعمة الشهية النادرة تستورد من جميع أجزاء الإمبراطورية ومن البلاد الخارجية ، فالطاوويس تستورد

(*) فيلسوف أبيقوري يوناني (؟ - ٢٧٧ ق . م) .

(**) حيوان بحري . (المترجم)

من جزيرة ساموس Samos ، والقطا من قريچيا : والكركى من أيوليا ،
والبن (التونة) من خلقدونية Chalcedon والشيق (*) من جاديز Oades ،
والبطينوس من تارنم Tarentum والدخس (***) من رودس . وكانت
الأطعمة التي تنتجها إيطاليا نفسها تعد حقيرة بعض الشيء لا تليق
إلا بالسوقة : وقد أولم الممثل أيزوپس Aesopus وليمة أكل فيها من الطيور
المفردة ما ثمنه خمسة آلاف ريال أمريكي بنقود هذه الأيام (٢٠) . وظلت
القوانين تصدر بتحريم الإسراف في الطعام ، ولكن أحداً لم يكن يأبه
بها . وحاول شيشرون أن ينقيد بهذه القوانين فلا يأكل إلا الخضرا المباحة
شراً ، وظل عشرة أيام يشكو زحار البطن « .

وأنفقت بعض الثروة الجديدة في إقامة الملاهي الرحبة والألعاب على
أوسع نطاق ، من ذلك أن إيميلوس اسكورس Aemilius Scaurus شاد
ملاهي يحتوي ثمانية آلاف مقعد ، وثلاثمائة وستين عموداً ، وثلاثة آلاف
تمثال ، ومسرحاً ذا ثلاث طبقات وثلاثة صفوف من الأعمدة منها صف
من الخشب ، وصف من الرخام ، وثالث من الزجاج . وتمرد عبيده
لشدة ما أرهقهم من العمل فحرقوا الملاهي بعد الفراغ من بنائه ، وحملوه ديناً يبلغ
مائة مليون سترس (٢٣) . وقدم بمبي في عام ٥٥ ما يلزم من المال لإقامة أول ملاهي
حجري دائم في رومة - وكان يحتوي على ١٧٥٠٠ مقعد ، وعلى بستان
فسيح ذي أروقة يتنزه فيها النظارة بين الفصول ، وأقام اسكريونيوس
كوريو Scribonius Curio أحد قواد قيصر عام ٥٣ ملهين من الخشب
كلاهما على شكل نصف دائرة يتصلان بظهريهما ، وكان الملهيان يعرضان
مسرحيات في الصباح ، فإذا انتهى التمثيل دار البناءان ، والنظارة لا يزالون
في مقاعدهم ، على قطبيهما وعجلهما فاستحال نصفا الدائرتين مدرجاً ،

(.) نوع من السمك ويسمى أيضاً مريئة و « أبو مريتا » .

(. .) نوع آخر من السمك Sturgeon (المترجم)

وأضحى المسرحان حلبة للمصارعة (٢٤) . ولم تبلغ الألعاب في بلد من البلاد أو في هصر من العصور من الكثرة وعظيم النفقة وطول الزمن مثل ما بلغت وفتتد في رومة (٢٥) : وحسبنا دليلا على ذلك أن العاباً أقامها قيصر اشترك فيها يوم واحد عشرة آلاف مجالد ، وقتل فيها الكثيرون منهم . وعرض صلا قتالا للآساد اشترك فيه مائة أميد ، وعرض قيصر قتالا آخر كان فيه أربعائة ، وعرض بمي قتالا كان فيه ستائة . وكانت الوحوش في هذه الألعاب تقاتل الرجال والرجال يقاتل بعضهم بعضاً ، والنظارة الذين تغص بهم الساحات يشاهدون مناظر الموت وهم مختبئون .

الفصل الثالث

المرأة الجديدة

كان ازدياد الثراء وفساد الأخلاق من أكبر العوامل في الانحلال الخلقى وانفصام رابطة الزواج . وظلت الدعارة منتشرة في البلاد رغم ازدياد التنافس من النساء ومن الرجال . وازداد عدد المواخير والحانات التي تأوى هؤلاء العاهرات زيادة جعلت بعض الساسة يلجئون في الحصول على أصوات الناخبين إلى اتحاد أصحاب المواخير (٣٥) . وأصبح الزنى من الأمور العادية ، وألفه الناس حتى لم يعد يستلفت أنظار إنسان ما إلا إذا استخدم للأغراض السياسية . ولم يكن ثمة امرأة موسرة إلا طلقت مرة على الأقل ، ولم يكن اللوم في ذلك واقعاً على النساء ، فقد كان أكبر أسباب انتشار الطلاق أن الزواج عند الطبقات العليا أصبح خاضعاً للمال وللسياسة . ذلك أن الرجال كانوا يختارون أزواجهم أو كانت الأزواج يخترن للشبان ليحصلوا منهن على أكبر البائئات أو على صلات يفيدون منها جاهاً ومالاً ، وقد تزوج صلاح وبمبي خمس مرات ، وأراد صلاً أن يضم بمبي إلى جانبه فأقنعه بالتخلص من زوجته الأولى والاقتران بإميليا ربيبة صلاً ، وكانت وقتئذ متزوجة وحاملاً . ووافقت إميليا على هذا الزواج مكرهة ولكنها ماتت في أثناء الوضع عقب انتقالها إلى بيت بمبي . وزوج قيصر ابنته يوليا Julia إلى بمبي ليضمن بذلك انضمامه إليه في الحلف الثلاثي . وأغضبت كاتو هذه الحال فوصفها بقوله « إن الإمبراطورية أصبحت توكيلاً لإدارة شؤون الزواج » (٢٥) . ولم تكن هذه الزيجات إلا زيجات سياسية ، إذا تم النفع المرجو منها تطلع الزوج إلى زوجة أخرى يرقى على كتفها إلى منصب أعلى أو مال أوفر . ولم يكن ثمة حاجة إلى سبب يبيديه ، وحسبه أن يرسل إليها خطاباً يبلغها فيه أنها أصبحت حرة في شؤونها كما أصبح

هو حراً في شئونه . وامتنع بعض الرجال عن الزواج امتناعاً تاماً ، وكانت حجبتهم في هذا أن المرأة الجديدة قد ذهب حياؤها وأسرفت في حرقتها ، واكتفى كثيرون منهم باتخاذ السراري والإماء . وكان الرقيب متلس المقدوني *Metellus Macedonicus* (١٣١) يرجو الرجال أن يتزوجوا وينجبوا الأبناء لأن هذا واجب تفرضه عليهم الدولة مهما ضاقت نفوسهم بالزوجات (٢٦) ، ولكن عدد الأعذار والزيجات العقيمة أخذ بعد هذا النصح يزداد أسرع من ازدياد قبله ، وأصبح الأطفال من الكليات التي لا يطبقها إلا الفقراء .

وهل تلام المرأة وهي تعيش في هذه الظروف إذا استخفت بقسم الزواج ووجدت في الصلات الجنسية غير المشروعة الحب والعطف اللذين لم ينلها إياهما الزواج السياسي . لقد كانت هناك بطبيعة الحال كثرة من النساء الصالحات حتى بين الأغنياء أنفسهم ، ولكن الحرية الجديدة أخذت تحطم ما كان للأب من سيطرة تامة على أسرته *Patria Potestas* كما أخذت تحطم كيان الأسرة بأكملها . وخلعت النساء الرومانيات العذار ، وكان هن من الحرية مثل ما للرجال سواء بسواء ، واتخذن هن أثواباً من الحرير المهال الشفاف المستورد من الهند والصين ، وأرسلن رسالهن يجوبون أسواق آسية ليأتوهن بالخلي والعطور ، واختفى الزواج الذي يتبعه انتقال الزوجة إلى دار زوجها *Marriahe cum manu* ، وكانت النساء يطلقن أزواجهن كما يطلق الرجال زوجتهم . وأخذت طائفة متزايدة من النساء تنفس عن نفسها بالأعمال الثقافية . وأخذت طائفة متزايدة من النساء تنفس عن نفسها بالأعمال الثقافية ، فتعلمن اللغة اليونانية ، ودرسن الفلسفة ، وكتبن الشعر ، وأقبن المحاضرات العامة ، ولعبن وغنين ورقصن ، وأقبن الندوات الأدبية واشتغل بعضهن بالتجارة والشئون المالية ، ومارست فئة قليلة منهن صناعة الطب أو الحمامة .

وكانت كلوديا *Clodia* زوج كونتس كاسيليوس متلس *Quintus Caecilius Metellus* أشهر النساء اللاتي أكلن ما في أزواجهن من نقص بالقيام بطائفة

من أعمال الفروسية والشهامة ، فقد تملكها نزعة قوية للدفاع عن حقوق النساء ، وهزت مشاعر الجيل القديم بسيرها بعد زواجها مع أصدقائها الرجال دون أن يكون معها محرّم ، وكانت تستقبل من تعرف من أصدقائها وتقبلهم أحياناً على ملاء من الناس ، بدل أن تغض الطرف وتنزوي في عربتها شأن النساء الراقيات في عرف تلك الأيام ، وكانت تولم الولاثم لأصدقائها من الرجال ، وكان زوجها يعتمد الغياب في أثنائها كما كان يفعل بعدئذ ماركيزده شاتليه *Marquis ds châtelet* ، ويصف شيشرون — وهو الرجل الذي لا يوثق بوصفه — « حبها ، وزناها ، وعهرها ، وأغانيتها ، وما كانت تقيمه من حفلات موسيقية وولاثم الطعام ، ومقاصف الشراب في بايا *Baiae* برأ وبحراً » (٣٧) . وكانت في الحق امرأة ماهرة إذا زلت في ظرف وكياسة ، يعجز الإنسان عن ألا يزل معها ، ولكنها أخطأت في الاستخفاف بأنانية الرجال ، لقد كان كل واحد من عشاقها يجب أن يستأثر بها حتى تفر شهوته ، كما كان كل واحد منهم يصبح عدوها الألد حين تتخذ لها صديقا غيرَه . ومن أجل ذلك لطخها كتاس *Cutullus* (إذا كانت هي التي يسميها لزبيا *Lesbia*) بالنكات البذيئة ، وذكرها كاليوس *Caelius* في حديث له عن الذي تبتاع به أفقر العاهرات ، ووصفها علنا في المحكمة بأنها المرأة التي تبتاع بربع آس *Quadrantaria* (أي ما يعادل $\frac{1}{4}$ من الريال الأمريكي) ، ذلك بأنها كانت قد اتهمته بأنه حاول قتلها بالسم ، واستأجر هو شيشرون للدفاع عنه ، ولم يتورع الخطيب المبره عن اتهامها بالفسق مع محارمها وبالقتل ، وقال في خلال دفاعه إنه رغم هذا « ليس عدوا للنساء وأولى له ألا يكون عدوا لامرأة هي صديقة لكل الرجال » . وبرئ كتلس مما اتهم به وجوزيت كلوديا بعض الجزاء لأنها أخت پيليوس كلوديوس أشد الزعماء تطرفا في رومة وألد أعداء شيشرون .

الفصل الرابع

كاتو ثانٍ

وقام في وسط هذا الفساد والانحلال رجل كان بقية من رجال الأيام الحالية وداعية للسير على سننها . ذلك هو ماركس پورسيوس كاتو Marcus Porcius Cato الأصغر . وكان قد خرج على مبدأ من مبادئ جده الأعلى فدرس اللاتينية وأفاد منها تلك الفلسفة الرواقية التي بعثت فيه مع عقيدته الجمهورية إخلاصه القوي الذي لم يفارقه قط طول حياته . وورث كاتو من المال مائة وعشرين تالنتا (أى ما يعادل ٤٣٢٠٠٠ ريال أمريكى) ولكنه عاش عيشة بسيطة كلها جد ونشاط ، وكان يقرض المال ولكنه لا يتقاضى عن قروضه فوائد . وكانت تعوزه فكاهة جده الأعلى الخشنة ، وقد أزعج الناس بما كان يتصف به في ظنهم من الاستقامة الصارمة العنيدة والاستمسك بالمبادئ استمسكاً لا يتفق في رأيهم مع روح العصر الذي يعيش فيه . ذلك أن حياته نفسها كانت آهلاً لحياتهم لا يغفرونه له ، وكانوا يتمنون أن لو مال قليلاً نحو الرذيلة ، ولو لم يكن هذا إلا احتراماً لعادات بنى الإنسان وتأديباً في حقهم . وما من شك في أنهم قد ابتهجوا حين فعل كاتو فعلة تكاد تنم عن سخريته بالمرأة واعتقاده أنها ليست إلا أداة للتناسل « فأعار » زوجته مارسيليا إلى صديقه هورتنسيوس Hortensius - أى طلقها وحضر زواجها بالخطيب الذائع الصيت - ولما مات هورتنسيوس بعدئذ أعادها إلى عصمته (٢٨) . ولم يكن في وسع معاصريه أن يحبوه لأنه كان ألد أعداء الحياة والسفالة . وأشد المدافعين عن حقوق الآباء على أبنائهم وأسراهم . وكان نقده لأخلاق ذلك العصر أقسى وأشد صرامة من نقد الرقيب كاتو الأكبر نفسه . وقلما كان يضحك أو يبتسم ، ولم يحاول

قط أن يكون لطيفاً بشوشاً ، وكان يؤنب كل من يجروء على تملقه أشد التأنيب . وقد قال شيشرون إنه أخفق في أن ينتخب قنصلاً لأنه كان يحيا حياة مواطن في جمهورية أفلاطون لا حياة روماني بين حثالة أبناء رميولوس (٢٩) ،

ولما عين كوسترا كان سوط عذاب يصب على العجز وعلى استغلال سلطان الوظيفة ، وحفظ أموال الخزانة العامة من جميع الغارات السياسية ، ولم تضعف يقظته وحرصه على هذه الخزانة بعد أن انقضت فترة توليه منصبه . وكان يصب تهمة على جميع الأحزاب على حد سواء ، وقد أفاد من هذه التهم آلاف المعجبين ولكنها لم تترك له صديقاً واحداً . ولما كان بريتورا أقبح مجلس الشيوخ بأن يصدر قراراً بأن يأمر كل مرشح للقنصلية أن يحضر إلى ساحة القضاء ، وبعد أن يقسم اليمين يعرض على للقضاة بياناً مفصلاً بما أنفقه أثناء الحملة الانتخابية ، وما اتبعه فيها من الوسائل ، وأزعج هذا القرار كثيراً من السياسيين لأن الكثرة الغالبة منهم كانت تعتمد في انتخابها على الرشا ، فلما أن ظهر كاتو بعدئذ في السوق العامة أخذوا هم ومواليهم يسبونهم ويرمونهم بالحجارة ، فلم يكن منه إلا أن اعتلى المنصة وواجه المجتمعين وهو ثابت الجنان ، وما زال يخطب فيهم حتى خضعوا له . ولما اختير تريبيونا سار على رأس جيش إلى مقدونية ، وامتطى خدمه وأتباعه الجياد ، أما هو فسار راجلاً . وكان يهزأ برجال الأعمال ويدافع عن الأرستقراطية أو حكم أبناء الأسر الشريفة ، ويرى أنه إن لم يحكم البلاد هؤلاء الأشراف فلا مفر من أن يحكمها ذوو الثراء ، وهذا شر أيماً شر . وشن حرباً شعواء لا هوادة فيها على الذين كانوا يفسدون السياسة الرومانية بالمال والأخلاق الرومانية بالترف ، وظل إلى آخر أيام حياته يتقاوم كل خطوة يخطوها ممي أو قيصر نحو الطغيان الفردي . ولما أن قضى قيصر على الجمهورية تخلص سماتو من حياته بيده وإلى بجانبه كتاب من كتب الفلسفة .

الفصل الخامس

اسبارتكوس

ووصل سوء الحكم وقتئذ إلى غايته كما تأصت الديمقراطية فيه بدرجة قلما نجد لها نظيراً في تاريخ الدول . وحدث في عام ٩٨ ق . م أن أعاد القائد الروماني ديدويوس Didius مافعه من قبله ساپسيوس جلبا Swpicius Galba فقد خدع قبيلة كاملة من الأسبان المشاغبين حتى استدرجهم إلى معسكر روماني في أسبانيا مدعياً أنه يريد أن يسجل أسماءهم ليوزع الأرض الزراعية عليهم ، فلما دخلوا المعسكر هم وأزواجهم وأبنائهم أمر بهم فذبجوا عن آخرهم ، ولما عاد إلى رومة احتفل بعودته احتفال الظافرين (٣٠) : ولم يطق هذه الفظائع وأمثالها من ضروب الوحشية التي كان يقترفها رجال الإمبراطورية ضابط سبيني في الجيش الروماني يدعى كونثس سرتوريوس Quintus Sertorius فذهب الأسبان ، ونظم صفوفهم ودرجهم على القتال وقادهم من نصر إلى نصر على الجيوش الرومانية التي سبرت لإخضاعهم ، وظل ثمانين سنين (٨٠ - ٧٢) يحكم مملكة ثائرة خارجة على حكم الرومان ، كسب في خلالها قلوب الأسبان بحكمه العادل وبإنشاء المدارس لتعليم أبنائهم ، وعرض متلس القائد الروماني مائة تالنت أي ما يقرب من ٣٦٠٠٠٠ ريال أمريكي ، وعشرين ألف فدان من الأرض مكافأة لأي روماني يقتل سرتويوس ، وكان لهذا العرض السخى أثره فدعاه برپنا Perpenna ، وهو لاجئ روماني في معسكره ، إلى وليمة ، واغتاله ، وتولى قيادة الجيش الذي دربه سرتوريوس ، وأرسل بمي لقتال برپنا ولم يبق صعوبة ما في التغلب عليه . وأسر برپنا وأعدم وعاد الرومان إلى استغلال أسبانيا من جديد .

وكان العمل الثاني من أعمال الثورة من فعل الأرقاء لا من فعل الأحرار ،

ذلك أن لنتولس بتياتس **Lentulus Batiates** قد أنشأ في كپوا مدرسة للمصارعين ، رجالها من الأرقاء أو المجرمين المحكوم عليهم ، ودرهم على صراع الحيوانات أو صراع بعضهم بعضاً ، في حلبة للصراع العامة أو في البيوت الخاصة . ولم يكن ينتهى الصراع حتى يقتل المصارع . وحاول مائتان من هؤلاء المصارعين أن يفروا ، ونجح منهم ثمانية وسبعون ، وتسلموا واحتلوا أحد سفوح بركان فيزوف ، وأخذوا يغيرون على المدن المجاورة طلباً للطعام (٣٧) . واختاروا لهم قائداً من أهل تراقية يدعى اسپارتكوس **Spartacus** يقول فيه أفلو طرخس إنه « لم يكن رجلاً شهماً شجاعاً وحسب ، بل كان إلى ذلك يفوق الوضع الذى كان فيه ذكاء في القتل ودمائة الأخلاق » (٣١) . وأصدر هذا القائد نداء إلى الأرقاء في إيطاليا يدعوهم إلى الثورة ، وسرعان ما التف حوله سبعون ألفاً ، ليس منهم إلا من هو متمطش للحرية وللانتقام . وعلمهم أن يصنعوا أسلحتهم ، وأن يقاتلوا في نظام أمكنهم به أن يتغلبوا على كل قوة سيرت عليهم لإخضاعهم . وقذفت انتصاراته الرعب في قلوب أثرياء الرومان ، وملاّت قلوب الأرقاء أملاً ، فهرعوا إليه يريدون الانضواء تحت لوائه ، وبلغوا من الكثرة حداً اضطر معه أن يرفض قبول متطوعين جدد بعد أن بلغ عدد رجاله مائة وعشرين ألفاً لأنه لم يكن يسهل عليه أن يعنى بأمرهم . وصار بجيوشه صوب جبال الألب ، وغرضه من هذا « أن يعود كل رجل إلى بيته بعد أن يجتاز هذه الجبال » (٣٢) . ولكن أتباعه لم يكونوا متشبعين مثله بهذه العواطف الرقيقة السلمية ، فتمردوا على قائدهم ، وأخذوا ينهبون مدن إيطاليا الشمالية ، ويعيثون فيها فساداً ، وأرسل مجلس الشيوخ قوات كبيرة بقيادة القنصلين لتأديب العصاة ، والتقى أحد الجيشين بقوة منهم كانت قد انشقت على اسپارتكوس وأفتتها عن آخرها . وهوجم الجيش الثانى قوة العصاة الرئيسية فهزمته وبددت شمله . ثم سار اسپارتكوس بعدئذ صوب جبال الألب والتقى في أثناء سيره بجيش ثالث يقوده كاسيوس فهزمه شرهزيمة ، ولكنه وجد جيوشاً

رومانية أخرى تقف في وجهه وتسد عليه المسالك فولى وجهه شطر الجنوب
وزحف على رومة .

وكان نصف الأرقاء في إيطاليا متأهبين للثورة ، ولم يكن في وسع
أحد في العاصمة نفسها أن يتنبأ متى تنشب هذه الثورة في بيته ، وكانت
تلك الطائفة الموسرة المترفة التي تتمتع بكل ما في وسع الرق أن يتمتع به ،
كانت تلك الطائفة كلها ترتعد فرائصها فرقاً حين تفكر في أنها ستخسر
كل شيء - السيادة والملك والحياة نفسها - ونادى الشيوخ وذوو الثراء
بطالبون بقائد قدير ، ولكن أحداً لم يتقدم للاضطلاع بهذه القيادة ،
فقد كان القواد كلهم يخافون هذا العدو الجديد العجيب ، ثم تقدم
كراسس Crassus آخر الأمر وتولى القيادة ، وكان تحت إمرته أربعون
ألفاً من الجنود ، وتطوع كثير من الأشراف في جيشه لأنهم لم ينسوا
كلهم تقاليد الطبقة التي ينتمون إليها ولم يكن يخفى على اسپارتكوس أنه
يقا تل إمبراطورية بأكملها ، وأن رجاله لا يستطيعون أن يصرفوا شئون
العاصمة بله الإمبراطورية نفسها إذا استولوا عليها ، فلم يعرج في زحفه
على رومة وواصل السير حتى بلغ ثوريای Thuriى مخترباً إيطاليا كلها من
شمالها إلى جنوبها ، لعله يستطيع نقل رجاله إلى صقلية أو إلى إفريقية ، وظل
سنة ثالثة يصد الهجمات التي يشنها عليه الرومان ، ولكن جنوده نفذ صبرهم
وسثموا القتال ، فخرجوا عليه وعصوا أوامره ، وأخذوا يعيشون
فساداً في المدن المجاورة ، والتقى كراسس بجماعة من أولئك النهابين وفتك
بهم ، وكانوا اثني عشر ألفاً وثلثمائة ظلوا يقاتلون إلى آخر رجل فيهم .
وفي هذه الأثناء كان جنود بمبي قد عادوا من أسبانيا فأرسلوا لتقوية جيوش
كراسس ، وأيقن اسپارتكوس أن لا أمل له في الانتصار على هذه الجيوش
الحرارة ، فالتقى على جيش كراسس وألقى بنفسه في وسطه مرحباً بالموت

في وسط المعركة ، وقتل بيديه ضابطين من ضباط المئين ، ولما أصابته
طعنة ألقته على الأرض وأعجزته عن النهوض ظل يقاتل وهو راجع
على ركبتيه إلى أن مات وتمزق جسمه لم يكن من المستطاع أن
يتعرف عليه . وهلك معه معظم أتباعه ، وفر بعضهم إلى الغابات ،
وظل الرومان يطاردونهم فيها ، وصلب سبعة آلاف من الأسرى في
الطريق الألباوى الممتد من كپوا إلى رومة (٧١) . وتركت أجسامهم المتعفنة
على هذه الحال عدة شهور تطمينا لجميع السادة وإرهاباً لجميع العبيد .

الفصل السادس

بمبي

ولما عاد كراسس وبمبي من هذه الحملة لم يسرحا جنودهما أو يجرداهم من سلاحهم عند أبواب رومة استجابة لرغبة مجلس الشيوخ وإطاعة للقانون ، بل عسكرا بهم خارج أسوار المدينة ، وطالبا أن يؤذن لهما بأن يرشحا نفسيهما للقنصلية دون أن يدخلتا المدينة - وخالفنا بذلك مرة أخرى كل السوابق المألوفة . وزاد بمبي على ذلك أن طالب أرضاً لجنوده وموكب نصر لنفسه . ولكن مجلس الشيوخ لم يجبه إلى طلبه ، وكان يرجو أن يفرق بين القائدين ويثير كلا منهما على الآخر . غير أن كراسس وبمبي اتفقا فيما بينهما ، وعقدا حلفاً فجائياً مع الطبقات الدنيا ومع رجال الأعمال ، ونجحوا بفضل الرشا السخية في أن يختارا قنصلين في عام ٧٠ ق . م وقد ناصرها رجال الأعمال لغرضين عاجلين أولهما رغبتهم في أن يستعيدوا ما كان لهم من سلطان في مناصب المحلفين الذين يحاكمونهم ، وثانيهما أن يستبدلوا بلوكلس Lucullus - الذي كان يحكم الشرق حكماً صالحاً لا نفع فيه لهم رجلا من طبقتهم يعمل بمبادئهم . وقد وجدوا في بمبي ضالتهن المنشودة .

وكان بمبي وقتئذ في الخامسة والثلاثين من عمره ولكنه كان جندياً ضرسته الحروب وخاض معارك كثيرة . وكان من أسرة غنية من طبقة الفرسان ، نال إعجاب مواطنيه أشجاعته واعتداله وحذقه كل ضروب الألعاب وفنون الحرب . وكان قد طهر صقلية وإفريقية من أعداء صلا ولقبه القنصل الفكه بلقب « العظم » جزاء له على زهوه وانتصاره في الحروب . وقد أحرز بعض النصر وهو شاب أمرد (٣٣) . وقد باغ

من الجبال حدا أنطق فلورا Flora إحدى سرارى ذلك الوقت بقولها إنها لم تكن تستطيع أن تفارقه قط دون أن تعضه (٣٤) . وكان مرهف الشعور ، شديد الحياء ، يحمر وجهه من شدة الحجل إذا اضطر إلى مخاطبة في اجتماع عام ، أما في الحرب فقد كان في تلك الأيام باسلاً مقداماً يخوض غمارها ولا يبالي بما يتعرض له من الأخطار . ولما تقدمت به السن أثر حياؤه كما أثرت بدانته في قدرته على القيادة ، وكان تردده سبباً في هزائمه . ولم يكن ألعياً سريع الخاطر أو عميق التفكير ؛ ولم يكن هو الذى يرسم الخطط التى يسير عليها ، بل يضعها غيره . كان يضعها له في أول الأمر السياسيون من طبقته العامة ثم الأثرياء من الشيوخ . وكان ثراؤه الواسع سبباً في انتشاره من المغريات السياسية الدنيئة ؛ فكان وهو في وهدة الفساد والأنانية التى يتردى فيها أهل زمانه علماً في الوطنية والاستقامة ؛ وبلوح أنه كان في أعماله يستهدف الصالح العام مع صالحه الخاص . وكان أبرز عيوبه غروره وكبرياؤه ، ومنشأ ذلك أن انتصاراته الأولى قد جعلته يغالى في تقدير مواهبه ، وكان مما يعجب له ولا يستطيع فهمه أن تتركاً رومة هذا التلكو الطويل في أن تجعله يستمتع بكل ما يستمتع به الملوك إلا الاسم وحده .

ولما تسنم صنيعتنا صملاً منصب القنصلية أخذنا يعملان ما في وسعهما لتقويض أركان الدستور الذى وضعه ولى نعمتهما . وأراد عمى وكراسس أن يوفيا بما عليهما من دين للعامة فأقرا مشروع قانون يهدف إلى إرجاع ما كان للتربيون من سلطات ، ووطدا دعائم حلفهما مع رجال الأعمال فأمرنا لوكلنس أن يحول المتزسين الإشراف التام على جباية الضرائب في بلاد الشرق ، وأيدا التشريع الذى يقضى بأن توزع مناصب الخلفين بالتساوى بين أعضاء الشيوخ وطبقتى الفرسان ورجال المال . ومضى على كراسس خمسة عشر عاماً قبل أن يلقي جزاءه - وهو أن يصب الذهب في جوفه صبا في بلاد آسية . أما عمى فقد نال جزاءه في عام ٦٧ حين تحولته الجمعية سلطة تكاد أن تكون مطلقة من كل قيد في

تأديب قراصنة قليقية . ذلك أن جزيرة رودس قد استطاعت في الأيام السالفة أن تطهر بحر إيجه من هؤلاء القراصنة ؛ فلما أن ذلت رودس وافتقرت على يد رومة وديلاوس لم يكن في مقدورها أن تحتفظ بالمهارة البحرية التي تمكنها من هذا العمل ، ولم يكن الأشراف ملاك الأراضي المسيطرون على مجلس الشيوخ شديدي الحرص على أن تبقى مسالك التجارة البحرية آمنة من الأخطار . أما التجار والعامة فقد تأثروا بهذه الحال أشد التأثر ، فقد تعذرت التجارة لوكادت في بحر إيجه بل وفي القسم الأوسط من البحر الأبيض المتوسط ، ونقص المستورد من الحبوب نقصاً سريعاً ارتفع بسببه ثمن القمح في رومة حتى بلغ عشرين سترس لكل موديس (*) أو نحو ثلاثة ريالات أمريكية لكل جالونين . وتباهى القراصنة بنصرهم فرفعوا على سفنهم التي تبلغ عدتها ألف سفينة الساريات المذهبة والأشرعة الأرجوانية ، وجهازوها بالمجازيف المصفحة بصفائح الفضة ؛ وقد استولوا على أربعائة من المدن الساحلية ، واحتفظوا بها ، ونهبوا الهياكل في سمثريس Samothrace . وساموس Samos ، وإيدورس Epidaurus ، وأرجوس Argos ولوكاس Leucas وأكتيوم Actium ، وعمدوا إلى اختطاف الموظفين الرومان ، وبلغت بهم الجراءة أن هاجموا سواحل أبوليا Apulia وإتروزيا .

وأراد جابينيوس Gabinias صديق بومي أن يعالج هذا الموقف ، فتقدم بمشروع قانون يجعل له السيطرة التامة مدى ثلاث سنوات على جميع الأساطيل الرومانية وعلى جميع الأشخاص المقيمين على مدى خمسين ميلاً من شاطئ البحر الأبيض المتوسط . وعارض كل الشيوخ ، ما عدا قيصر ، هذا الإجراء العجيب ، ولكن الجمعية أجازته في حماسة بالغة ووافقت على أن تمد بومي بجيش مؤلف من ١٢٥٠٠٠ مقاتل وأسطول مؤلف من ٥٠٠ سفينة ، وأبلغت خزانة

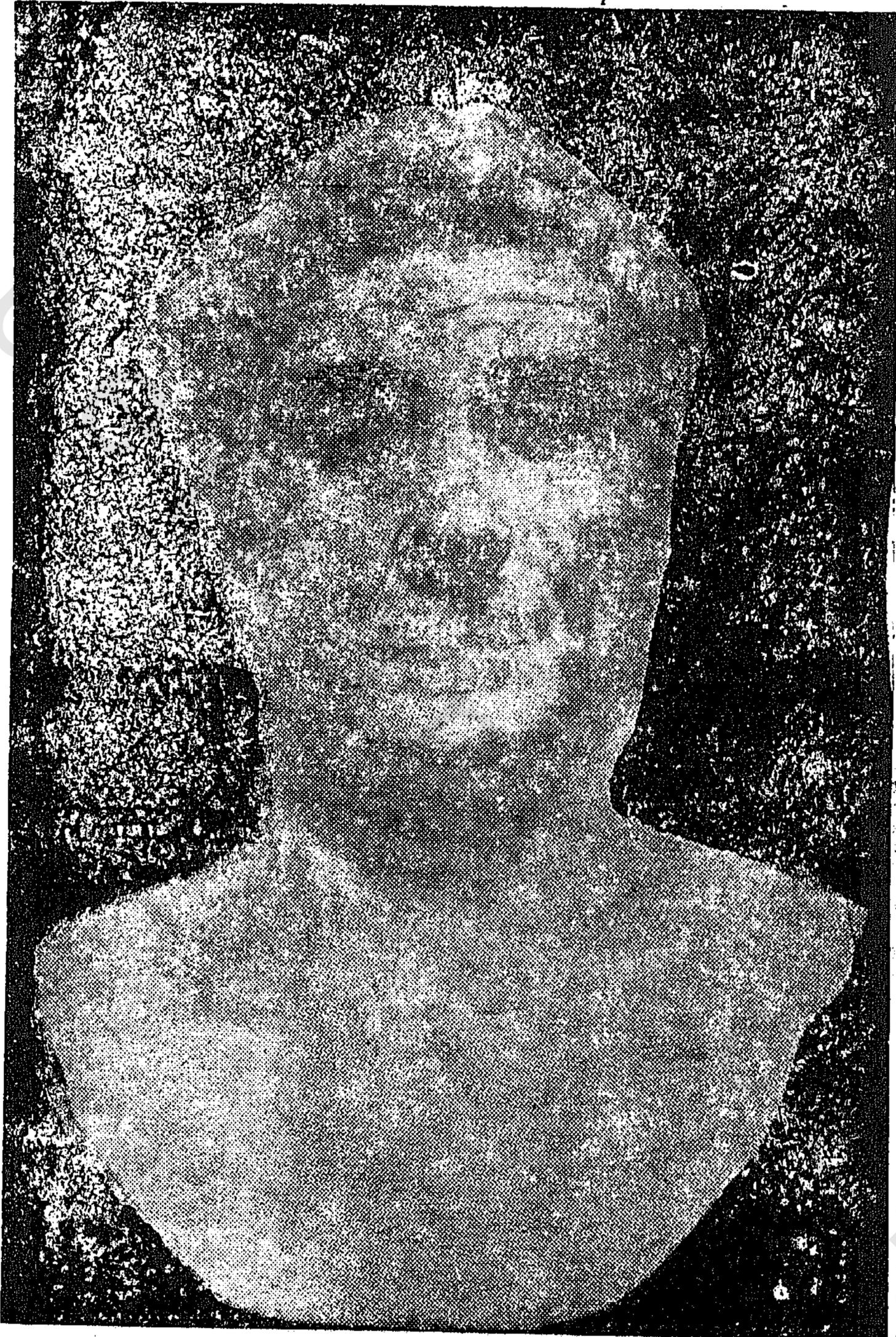
(*) مكيال رومان سمته نحو جالونين . (المترجم)

الدولة أن تضع تحت تصرفه ٠٠٠ر٠٠٠ و ١٤٤ سسترس . وكان هذا المشروع في واقع الأمر سلباً للسلطة من مجلس الشيوخ ، وختاماً لعودة « صلا » إلى الحكم ، وإقامة الملكية مطلقة . موثقة كانت فاتحة الملكية قيصر ومثلاً له يحتديه .

وكانت نتيجة هذا العمل مؤيدة لهذه السابقة الخطيرة ، فلم يمض على تنصيب ببي إلا يوم واحد حتى أخذ ثمن القمح في الانخفاض ، وقبل أن يمضى عليه في هذا المنصب ثلاثة شهور أتم العمل الذي نيط به - فاستولى على سفن القراصنة ومعاقلمهم وأعدم زعماءهم وإن لم يسيء استعمال السلطة غير العادية التي وضعت بين يديه . وتشجع التجار فأشطت التجارة الخارجية ، ومخرت السفن عباب البحار ، وتدفق على رومة سيل من الحبوب .

وقبل أن يعود ببي من قليقية عرض صديقه منليوس Manilius على الجمعية مشروع قانون بنقل قيادة الجيوش وحكم الولايات التي كان يقودها ويحكمها لوكلس (٦٦) إلى ببي ، وإطالة الفترة التي حددها قانون جابينيوس لسلطاته المتعددة . وعارض مجلس الشيوخ في هذا المشروع ، ولكن التجار والمرابين أيدوا الاقتراح تأييداً قوياً ، ذلك أنهم كانوا يؤمنون أن يكون ببي أقل ليناً من لوكلس لمدينهم في آسية ، وأن يعيد إلى الملتزمين حق جباية الضرائب ، وأنه لن يكتفي بفتح بثنيا وپنتس بل سيفتح كذلك كبدوكيا وسوريا وبلاد اليهود ، وأن هذه الحقول الغنية ستفتح أبوابها إلى التجارة والأموال الرومانية تحت حماية الجيوش الرومانية . وقام « رجل جديد » هو ماركس تليوس شيشرون Marcus Tullius Cicero كان قد اختير بريتورا في ذلك العام بمعونة رجال الأعمال فأيد « قانون منليوس » وهاجم العصابة المالية الحاكمة في مجلس الشيوخ بفصاحة وتهور لم يسمع بمثلهما في رومة من أيام ابني جراكس ، وبصراحة لم تعهد قط في السياسيين . ومن أقواله في هذا الهجوم :

« إن جميع النظم الخاصة بالمال والائتمان التي تسير عليها رومة ترتبط بخراج



(شکل ۹) پمپی - متحف کوپنهاجن

обейкэндл.ком

الولايات الأسيوية ارتباطاً لا انفصام له ، فإذا ما حمجز هذا الخراج انهارت جميع نظم المال والائتمان في هذه البلاد . : : وإذا ما نخسر بعض الناس أموالهم كلها جزوا معهم كثيرين غيرهم : فأنقذوا الدولة من هذه الكارثة . : : وابدلوا في الحرب هلى مئرداتس كل ما استطعتم من جهود حتى تحتفظوا بشرف رومة وسلامة أحلافنا ، وبأئمن جزء من مواردنا ، وبثروة عدد لا يحصى من المواطنين . : :

وأجازت الجمعية من فورها مشروع القانون ، ولم يكن ذلك لأن العامة يعنون أقل عناية بأموال المالبين ، بل لأنهم كان يسرهم أن يجدوا في تحويل قائد من القواد سلطات واسعة غير محدودة وسيلة لإلغاء تشريعات « صلا » و« نقضاء على سلطان مجلس الشيوخ عدوهم القديم .

ومن ذلك اليوم أخذ أجل الجمهورية ينصرم ، وأخذت حياتها تقرب من نهايتها . ذلك أن الثورة الرومانية مستعينة بفصاحة عدوها الألد ، كانت قد خطت خطوة أخرى نحو طغيان قيصر . : :

الفصل السابع

شيشرون وكاتلين

يقول أفلو طرخس إن ماركس تليوس إنما سمي شيشرون لأن أحد أجداده كانت له على أنفه ثؤلولة تشبه الحمصة الجبلية (cicer) . ولكن أرجح من هذا التعليل أن أباءه قد اكتسبوا هذا اللقب لما كانوا ينتجونه من حمص ذائع الصيت . ويصف شيشرون في كتاب « القوانين » وصفاً رقيقاً يخلب الالب بيته الصغير المتواضع الذي شهد مولده بالقرب من أرينوم Arpinum في منتصف المسافة بين رومة وناپل على التلال المتصلة بجبال أپنين Appenine . وكان لولده من الثروة ما يكفيه لأن يعلم ولده خبر تعليم يستطيع أن يناله في ذلك الوقت ، فاستأجر الشاعر اليوناني أركياس Archias ليعلم ماركس الأدب واللغة اليونانية ، ثم أرسله ليدرس القانون مع كونتس موسيوس أسكيفولا Quinuts Mucius Scaevola أعظم رجال القانون في عصره .

وكان شيشرون يستمع في شوق وانتباه إلى المحاكمات والمناقشات التي تدور في السوق العامة ، وسرعان ما أتقن الفنون والأساليب المتبعة في الخطب القانونية . وقد قال في إحدى المناسبات : « من أراد النجاح في القانون فعليه أن يتخلى عن جميع مسراته ، ويتجنب كل ضروب اللهو . ويودع التسلية والألعاب والطرب ، وأكاد أقول إن عليه أن يقطع صلته أصداقائه (٢٦) » .

وسرعان ما كان هو نفسه يشتغل بالقانون ويلقي خطباً رنانة حوت من البلاغة والشجاعة ما أكسبه شكر الطبقات الوسطى والدنيا . وقد قاضى أحد صنائع صلا وشهر بما كان يرتكبه من الاضطهاد حين كان حكم الإرهاب

الذي أقامه صلا على أشده (٨٠ ق : م) (٣٧) . ثم سافر بعد قليل من ذلك الوقت إلى بلاد اليونان ، ولعله سافر إليها فراراً من غضب ذلك الطاغية ، وظل في تلك البلاد يدرس الفلسفة وفن الخطابة . وبعد أن قضى ثلاث سنين في أثينة هنيئاً سعيداً التقل إلى رودس حيث استمع إلى محاضرات أبولونيوس Appollonius بن مولون Molon في البلاغة ، وإلى محاضرات بوسيدونيوس Poseidonius في الفلسفة ، وتعلم من أولهما تراكيب الجمل المتعاقبة وعفة اللفظ وهما الصفتان اللتان كان يمتاز بهما أسلوبه ؛ وتعلم من ثانيهما تلك الرواقية المعتدلة التي نادى بها بعدئذ فيما كتبه من مقالات عن الدين وفن الحكم والصدقة والشيوخوخة .

ثم عاد إلى رومة في سن الثلاثين وتزوج ترنشيا Terentia واستطاع بإيادها السخية أن يشتغل بالسياسة ، وعلا شأنه ونبه ذكره بعدله وحسن إدارته حين كان كوسترا في صقلية عام ٧٥ ق . م ولما عاد إلى الاشتغال بالمحاماة في عام ٧٠ ق . م أهاج عليه طبقة الأشراف إذ قبل أن يوكل في قضية أقامتها مدن صقلية على كبوس فيرس Caius Verris عضو الشيوخ ، واتهمته فيها بأنه وهو صاحب الخراج في تلك الجزيرة (٧٣ - ٧١) كان يبيع المناصب والأحكام . ويخفف الضرائب بنسبة ما يناله من الرشا ، وأنه لم يكن يبتى في سرقوسة شيئاً من تماثيلها ، وأنه وهب إيراد مدينة بأكلها إلى إحدى سراريه ، وأسرف في الظلم ، وابتزاز الأموال والمسرقات حتى غادر الجزيرة وهي أكثر خراباً مما كانت بعد حربين من حروب الرقيق ، وشر من هذا كله أن فيرس قد اختص نفسه ببعض ما كان يختص به الملتزمون عادة ، وناصر رجال الأعمال شيشرون في اتهاماته ، أما هرتسيوس الزعيم الأرستقراطي للمحاميين الرومان فقد تولى زعامة المدافعين عن فيرس ، وأجبر شيشرون أن يقضى في صقلية حوالي مائة يوم يجمع فيها الأدلة ؛ ولكنه اكتفى منها بخمسين يوماً ، وعرض في خطبته الافتتاحية من الأدلة للدامغة ما جعل هرتسيوس - وكان قد زين حدائقه ببعض ما نهبه

فیرس من التماثيل . يتخلى عن موكله . وحکم علی فیرس بغرامة قدرها أربعون مليون سسترس ، ففر إلى خارج البلاد . ونشر شيشرون بعدئذ الخمس الخطب الإضافية التي كان قد أعدها ، وكانت كلها هجوماً عنيفاً على فساد الحكم الروماني في الولايات . وبلغ ما أحرزه من تأييد الشعب بجده وشجاعته أنه حين رشح نفسه للقنصلية في عام ٦٣ ق . م انتخب بجماسة بالغة منقطعة النظر .

وكان شيشرون من أبناء طبقة الفرسان ، ولذلك كانت ميوله بطبيعة الحال مع الطبقة الوسطى ، وكانت تسميز نفسه من كبرياء الأشراف ويستنكر امتيازاتهم سوء حكمهم ، ولكنه كان يخشى أشد خشية أولئك الزعماء المتطرفين ، فقد كان يرى أن منهجهم ، بوضعه أزمة الحكم في أيدي الغوغاء ، يعرض الملكية لأشد الأخطار . ولهذا كانت الخطة السياسية التي وضعها لنفسه حين تولى الحكم أن يقيم « حلفاً من الطبقات » - أي تعاوناً بين الأشراف ورجال الأعمال ، يحول دون عودة تيار الثورة الجارف .

على أن أسباب التدمير وقواه كانت أعمق وأكثر من أن يقضى عليها بسهولة . فقد كان كثيرون من الفقراء يستمعون إلى الخطباء ينادون بوجوب قيام دولة مثالية ، وكان بعض من يستمعون إليهم على استعداد لأن يستخدموا أساليب العنف في تحقيقها . وكان يعاود عن هؤلاء قليلاً جماعات من العامة نحسروا آملاكهم لعجزهم عن أداء ما عليها من رهون . وكان بعض جنود صلا القدامى قد عجزوا عن استغلال أراضيهم استغلالاً مربحاً ، وكانوا مستعدين للاشتراك في أي اضطراب يتيح لهم فرصة لانتهاب المال بلا كد . وكان بين الطبقات العليا طائفة من المدينين المفاسين العاجزين عن أداء ديونهم ، والمضاربين الذين فقدوا كل أمل أو رغبة في الوفاء بالتزاماتهم ، ومنهم من كانت لهم مطامع سياسية ولكنهم وجدوا سبيل الرق تسلسها عليهم طائفة من المحافظين طالت آجالهم فوق ما ينبغي لها أن تطول . وكان إلى جانب هؤلاء كلهم عدد قليل من الثوار المخلصين لمثلهم العليا الذين

لا يخالجهم شك في أنه لا سبيل إلى تلطيف ما تثن منه الدولة الرومانية من فساد وظلم إلا بانقلاب كامل وثورة جارية .

ولم يحاول أحد جمع هذه الطوائف المشتتة وضمها كلها في قوة سياسية مؤتلفة إلا رجل واحد هو لوسيو سرجيوس كاتلين Lucius Sergius Catiline ، وهو رجل لا نعرف عنه إلا ما يصفه به أعداؤه - أي ما نستقيه من تاريخ حركته كما كتبها سلاست Sallust الفنى صاحب الملايين ، وما نقرؤه من اتهامات ومثالب مقذعة في خطب شيشرون ضد كاتلين ، فأما سلاست فيصفه بأنه « روح ملطخ بالإجرام ، هو والآلهة والناس على طرق نقيض ، لا يجد الراحة في نومه ولا في يقظته لأن ضميره قد قسا عليه فأنلف عقله المضنى المنهوك ، وكان هذا سبباً في صفرة وجهه ، وحمرة عينيه ، وهرجلته في مشيه ، فتارة يسرع وتارة يبطل ؛ وملاك القول أن وجهه ونظراته لا تترك مجالاً للشك في أن بعقله خبالاً » (٣٨) . ذلك وصف يوحى بالصورة التي رسمها لأعدائهم في الحرب أقوام يكافحون في سبيل الحياة والسلطان ؛ حتى إذا ما وضعت الحرب أوزارها هذبت الصورة شيئاً فشيئاً ؛ أما صورة كاتلين فلم تهذب قط ؛ فقد اتهم في شبابه باقتراع عذراء قستية ، وهى أخت غير شقيقة لزوج شيشرون الأولى ، وبرأت المحكمة العذراء من هذه التهمة ولكن السنة السوء لم تبرئ منها كاتلين ، بل فعلت عكس هذا إذ أضافت إلى التهمة الأولى تهمة ثانية هى أنه قتل ابنه ليرضى بقتله عشيقته الغيور (٣٩) . ولسنا نجد ما نعارض به هذه القصص إلا قولنا إن عامة الناس في رومة - « الغوغاء اليائسين الجياع » كما يسميهم شيشرون - ظلوا أربع سنين بعد وفاة كاتلين ينثرون الأزهار على قبره (٤٠) . وينقل لنا سلاست هذه الفقرة وهى كما يلوح فحوى خطبة له :

« منذ وقعت الدولة في قبضة عدد قليل من أقوياء الرجال . . . أصبح لهم فيها كل النفوذ والمنزلة والثروة ، ولم يتركوا لنا فيها إلا الخطر والهزيمة والمحامات

والفقر : : وماذا بقي لنا في الحياة إلا الأنفاس التي تتردد في صدورنا ؟ . . .
أليس خيراً لنا أن نموت شجعاناً من أن نفقد حياتنا اليائسة الذليلة بعد أن
نصير لعبة في أيدي السفهاء (٤١) .

وكانت الخطة التي يريد أن يضعها لضم عناصر الثورة المتعارضة
خطة سهلة بسيطة تتلخص في كلمتين هما « سجلات جديدة » ، ويقصد
بهما إلغاء الديون كلها إلغاء تاماً بلا قيد ولا شرط . وأخذ يعمل لهذه الغاية
بهمة لا تعادها إلا همة قيصر ؛ والحق أنه نال إلى حين عطف قيصر إذا
لم يكن قد نال في السر معونته . وقد قال فيه شيشرون : « لم يكن ثمة
شئ لا يستطيع فعله ، ولم تكن ثمة آلام لا يقاسيها في سبيل تعاون عناصر
الثورة ويقظتها وكدحها . وكان في وسعه أن يتحمل البرد والجوع
والعطش (٤٢) » . ويقول لنا أهدارث إنه نظم فرقة قوامها أربعائة رجل
هدد إليها قتل القنصلين والاستيلاء على أزمة الحكم في أول يوم من
عام ٦٥ ق : م فلما حل ذلك اليوم لم يحدث شئ غير هادي ، وفي عام ٦٤
ق : م رشح كاتلين نفسه للقنصلية ضد شيشرون وشن عليه حملة انتخابية
شديدة (*) ، روعت أصحاب رؤوس الأموال ، وبدأت أموالهم تتسرب
من إيطاليا . واتحدت الطبقات العليا لتأييد شيشرون وتحقيق بذلك ما كان
ينادي به من « تعاون الطبقات » ، ودام هذا التعاون عاماً كاملاً ، وكان
هو ممثل هذا التعاون وصوته الناطق .

ولما وجد كاتلين أبواب السياسة موصدة أمامه ولي وجهه شطر الحرب ،
فجهز أتباعه سرّاً جيشاً في إتروريا من عشرين ألف مقاتل ، وجمعوا في رومة عصابة
من المتآمرين كان فيها ممثلون بجميع الطبقات من الشيوخ إلى الرقيق . وكان فيها

(*) وفي هذه الحملة الانتخابية وضع كورنتس شقيق شيشرون له دستوراً يسير عليه في
حملة فقال : « عليك بالإسراف في الوعد ، لأن الوعد الكاذب أحب إلى الناس من الرفض
الصريح . . . واخترع فضيحة جديدة تزيدها عن منافسك جريمة كانت أو رشوة أو فضيحة
خلقية » (٤٣) .

بريتوران هما سثيجس **Sefhegus** ولنتولس **Lentulus** ، وتقدم كاتلين
للقنصلية مرة أخرى في شهر اكتوبر التالي .

ويقول لنا المترجمون له من المحافظين إنه أراد أن يضمن لنفسه النجاح
في هذا الانتخاب ، فدبر قتل منافسه في أثناء الحملة ، واغتيال شيشرون في
الوقت عينه . وادعى شيشرون أنه علم بهذا التدبير فملاً « ميدان المريخ »
بحرس مسلح ، وأشرف بنفسه على عملية الانتخاب ، وهزم كاتلين للمرة
الثانية رغم تأييد الطبقات الدنيا وتحمسهم له . ويحدثنا شيشرون أنه في اليوم
السابع من نوفمبر طرق بابه عدد من المتآمرين ، ولكن حراسه صدوهم عنه
وأبصر شيشرون في اليوم الثامن كاتلين في مجلس الشيوخ فأخذ يكيل
له ذلك السباب الذي كان كل تلميذ ينطق به في وقت من الأوقات . وبينما
كان الخطيب يصب اللعنات على كاتلين نخلت المقاعد التي حوله واحداً بعد
واحد حتى لم يبق في المجلس غيره . وتحمل وهو صامت سيل الاتهام الجارف
والألفاظ المقذعة القاسية تنصب انصباب السياط على رأسه .

وأخذ شيشرون يستثير كل عاطفة من عواطفه ، فشبه الأمة بالأب
العام وشبه كاتلين بقاتل أبيه ، واتهمه غمراً وضمناً بغير دليل بأنه يأتمر
بالدولة ، وبالسرقة ، والزنى ، والأفعال الجنسية الشاذة ، وتوجه آخر
الأمر إلى جوف **Jove** أن يقي رومة السوء ، وأن يصب عذابه السرمدي
على كاتلين .

ولما أتم شيشرون خطبته خرج كاتلين من المجلس دون أن يعترضه أحد ،
وانضم إلى قواته في إتروريا . وأرسل قائده لوسميوس منليوس **Lucius Manlius**
آخر نداء له إلى مجلس الشيوخ وقال فيه :

إنا لنشهد الآلهة والناس على أننا لم نمتشق الحسام لنقاتل به بلدنا ،
أو نهدد به سلامة بني وطننا . وكل الذي يدفعنا نحى المعدمين البائسين الذين
تضافر علينا عنف المرابين وقسوتهم فشردونا من أوطاننا ، وحكم علينا

بالفاقة والحرمات ، وأصبحنا سخرية للساخرين - كل الذى يدفعنا إلى ما نحن فاعلوه هو رغبتنا فى أن نحمى أنفسنا من الظلم . وأما المال وأما السلطان ، وهما أكبر أسباب النزاع بين بنى الإنسان ، فلا مآرب لنا فيهما ، بل كل الذى نطلبه هو الحرية ، ذلك الكنز الذى لا يفرط فيه الإنسان إلا حين يسلم الروح . وإنا لتتوسل إليكم أيها الشيوخ أن تستشعروا الرحمة على بنى وطنكم المعذبين (٤٤) !

وخطب شيشرون فى اليوم الثانى خطبة وصف فيها أتباع منافسه العاصى بأنهم طائفة ملتفة حول عصابة من الضالين المارقين المتعطرين ، وأطلق العنان لعبقريته فاخترع كل ما أسعفته به من سخرية وسباب ، وختم خطبته مرة أخرى بنعمة دينية . وعرض على مجلس الشيوخ فى الأسابيع التالية ما زعم أنه براهين تثبت أن كاتلين قد حاول أن يشعل نار الثورة فى بلاد الغالين ، وأقبح فى اليوم الثالث من ديسمبر أن يقنع أولى الأمر بالقبض على لتولس ، وشيخس وخمسة غيرهما من أتباع كاتلين . وصرح فى خطبة ثالثة له بالجريمة التى ارتكبوها ، وأعلن أنهم قد زجوا فى السجن ، وأبلغ المجلس والشعب أن المؤامرة قد أخفقت ، وأن فى وسعهم أن يعودوا إلى بيوتهم آمنين مطمئنين . وفى اليوم الخامس من ديسمبر دعا مجلس الشيوخ إلى الاجتماع وسأله عما يفعله بالمعتقلين ، فاقترح سلانوس أن يقتلوا ، وأشار قيصر أن يكتفى بسجنهم ، وذكر الشيوخ بأن قانون سمبرونيوس يحرم إعدام المواطن الرومانى ، ونصح شيشرون فى خطبة له رابعة أن يعدوا ، وكان فى هذه المرة رقيقاً فى نصحه ، غير عنيف فى عرضه . وأيد كاتو بفلسفته هذا رأى ، ورجحت كفة القائلين بالإعدام . وحاول بعض الشبان من الأشراف أن يغتالوا قيصر وهو خارج من قاعة المجلس ولكنه نجا من شرهم . وذهب شيشرون ومعه رجال مسلحون إلى السجن الذى كان فيه المعتقلون ، وهناك نفذ الحكم على الفور ، ثم أرسل ماركس أنطونيوس زميل شيشرون فى القنصلية ، ووالد ماركس أنطونيوس الذائع الصيت - أرسل على رأس جيش

رومانى للقضاء على قوة كاتلين . ووعده مجلس الشيوخ أن يعفو عن كل رجل يترك صفوف الثوار ، وأن يمنحه فوق ذلك مائتي ألف سسترس . ولكن « أحداً لم يفر من معسكر كاتلين » على حد قول سلاست ، ودارت رحى القتال بين الجيشين في سهول بستويا Pistoia (٦١) . وقاتل الثوار ، وكانوا ثلاثة آلاف رجل ، قتال الأبطال ، ودافعوا عن أعلامهم - نستور ماريوس - العزيزة عليهم إلى آخر رجل منهم رغم ما كانوا عليه من قلة بالنسبة لأعدادهم . ولم يستسلم واحد منهم أو يفر من الميدان ، بل ماتوا جميعاً في المعركة كما مات بينهم كاتلين نفسه .

وإذ كان شيشرون من رجال الفكر لا من رجال العمل ، فقد أدهشه وأثر فيه ما أظهره من المهارة والشجاعة في القضاء على هذه الفتنة الصماء . ومن أقواله في مجلس الشيوخ : « إنى ليخيل إلى أن تدبير هذا العمل للعظيم يتطلب حكمة فوق حكمة الآدميين » (٤٥) وشبه نفسه برمبولوس ، ولكنه قال إن حفظ رومة أعظم من تشييدها (٤٦) .

وتبسم الشيوخ وكبار الموظفين ضاحكين من قوله ، ولكنهم كانوا يعلمون أنه هو الذى أنجاهم ، وهتف له كاتو وكاتلس ولقباه بأبى الوطن Pater Patriae . وبجدثنا هو عن نفسه بقوله إنه لما اعتزل منصبه فى عام ٦٣ ق م قدمت له جميع الطبقات ذوات الألاك شكرها ، ولقبته بالرجل الخالد ، وسارت من حوله إلى بيته (٤٧) . ولم يشترك صعاليك المدينة فى هذه المظاهرة ، ذلك أنهم لم يغفروا له اعتدائه على قوانين رومة بقتله المواطنين دون أن يتيح لهم فرصة استئناف حكم الإعدام ، وأحسوا بأنه لم يحاول قط إزالة أسباب ثورة كاتلين أو تخفيف أعباء الفقر عن جبهة الشعب ، ومنعوه أن يخطب فى الجمعية فى آخر يوم من حكمه ، وكانوا يستمعون له وهم غضاب حين أقسم أنه قد حافظ على المدينة ، والحق أن الثورة لم ينتقض عهداها فى ذلك الوقت بل اندلعت نيرانها فيما بعد حين أصبح قيصر قنصلا .